المحاضرةالرابعةعشر: موقف رولان بارت من نظريات الأجناس الادبية

أولًا: مدخل عام — رولان بارت وسياق تفكيره النقدي

يُعدّ رولان بارت (Roland Barthes) أحد أبرز النقّاد والمنظّرين الفرنسيين في القرن العشرين، وقد كان له تأثير بالغ في تطوير الدراسات الأدبية واللغوية والسيميولوجية، ولد بارت عام 1915 وتوفي عام 1980، وارتبط اسمه بالتحولات الكبرى في النقد الأدبي التي نقلت الاهتمام من المؤلف إلى النص، ومن المعنى إلى البنية، ومن النوع إلى الخطاب.

ينتمي بارت إلى الجيل الذي جاء بعد البنيويين والشكلانيين الروس، وقد تأثر بهم في البداية، لكنه سرعان ما تجاوزهم نحو رؤية أكثر انفتاحًا على السيميائيات، والقراءة التفكيكية، وفلسفة الاختلاف.

وبالتالي، فإن موقفه من نظرية الأجناس الأدبية لا يمكن فصله عن مشروعه الأوسع، الذي يسعى إلى تحرير النص من القيود التصنيفية والتقعيدية.

ثانيًا: مفهوم "النوع الأدبي" في السياق البنيوي

قبل بارت، كانت نظرية الأجناس الأدبية قائمة على افتراضات كلاسيكية، تعود إلى أرسطو الذي صنّف الأدب إلى شعر وملحمة وتراجيديا وكوميديا، ثم تتابعت التصنيفات عبر العصور، فكرّس النقّاد حدودًا صارمة بين الأنواع.

أما في المرحلة البنيوية، ومع ظهور الشكلانية الروسية، أصبح النوع الأدبي يُفهم بوصفه نسقًا من الخصائص البنيوية داخل منظومة الأدب العام، غير أن هذه المقاربة البنيوية بقيت – في نظر بارت – مغلقة وثابتة، لأنها تحصر الأدب في شبكة من القوانين الشكلية، بينما الأدب، في جوهره، حقل من الانفلات والتعدد.

ثالثًا: بارت وبداية نقد التصنيفات النوعية

.1تفكيك الحدود بين الأجناس

منذ مقالاته الأولى، مثل "درجة الصفر في الكتابة" (1953)، أعلن بارت موقفًا نقديًا من فكرة النوع الأدبي، فهو يرى أن الكتابة (écriture) لا يمكن اختزالها إلى نوع أو شكل، لأنها فعل حرّ يتجاوز القوالب الجاهزة" .إن الكتابة هي منطقة حياد، لا شعر ولا نثر، بل هي فعل إنتاج للغة".

يرفض بارت التصنيفات التي تُحدّد ما يجب أن يكون عليه النص الأدبي، ويرى أن كل محاولة لتصنيف الأدب إلى أجناس إنما هي شكل من أشكال السلطة النقدية التي تسعى إلى ترويض النص وإغلاق معناه.

.2من النص المغلق إلى النص المفتوح

في كتابه(1970) "S/Z" ، الذي قدّم فيه قراءة تفكيكية لرواية بلزاك "سارازين", يفرّق بارت بين: النص القابل للقراءة :(Lisible) وهو النص المنتمي إلى تقاليد النوع الأدبي، يخضع لقوانين ثابتة، ويقدّم معنى محددًا، فالنص الكتَابي أو المنتِج :(Scriptible) وهو النص الذي يخرق الأنواع ويقاوم التصنيف، ويفتح أمام القارئ إمكانات غير محدودة من المعنى، وبهذا يصبح بارت من أوائل النقاد الذين تجاوزوا فكرة النوع الأدبي باعتبارها إطارًا مغلقًا، ودعا إلى فهم النص الأدبي بوصفه مجالًا للكتابة الحرة والاختلاف.

رابعًا: الأجناس الأدبية كأيديولوجيا

يرى بارت أن التقسيمات النوعية ليست مجرد أدوات تحليل، بل هي خطابات إيديولوجية، تحدّد ما هو أدبي وما ليس كذلك، فحين نقول "رواية"، "قصيدة"، "مسرحية"، نحن في الحقيقة نكرّس أنماطًا من التلقي والقراءة تخضع لمعايير اجتماعية وثقافية مسبقة.

في مقاله "موت المؤلف" (1968)، يعلن بارت أن سلطة المؤلف تماثل سلطة النوع" :إن إسناد نص إلى مؤلف هو إغلاق له، تمامًا كما أن نسبته إلى نوع هي تقييد لمعناه.، إذن، فموقف بارت من نظرية الأجناس هو موقف تحريري، يسعى إلى تحرير الأدب من كل سلطة: سلطة المؤلف، وسلطة النوع، وسلطة الناقد.

خامسًا: النص باعتباره فضاءً تعدديًا

يقدّم بارت في كتابه "لذة النص (Le plaisir du texte, 1973) "تصورًا جماليًا جديدًا يقوم على اللذة والانفتاح والتعدد، النص عنده فضاء تتقاطع فيه لغات وأصوات وأنظمة، وليس كيانًا ينتمي إلى نوع واحد" .كل نص هو نسيج من الاقتباسات، ومن آثار نصوص أخرى.، وبالتالي، فالنصوص كلها هجينة بطبيعتها، تتجاوز الحدود بين الأجناس، وتمتزج فيها السردية بالشعرية، والنثرية بالتحليلية، لذلك يمكن القول إن بارت هو أول من جعل مفهوم التهجين النوعي (Hybridité générique) جزءًا من نظرية النص الحديثة.

سادسًا: من "نظرية الأجناس" إلى "سيميائيات النص"

في المرحلة الأخيرة من فكره، لم يعد بارت يتحدث عن الأنواع الأدبية إطلاقًا، بل عن الأنظمة السيميائية.(Les systèmes sémiotiques) فكل إنتاج لغوي أو ثقافي هو "نص" يُقرأ بوصفه علامة، وليس بوصفه نوعًا، ومن هنا تحوّل اهتمامه من دراسة الشعر والرواية إلى تحليل الصور، والإعلانات، والأزياء، والسينما، معتبرًا أن الثقافة بأكملها هي شبكة من النصوص المفتوحة، هذا التحول يمثل انهيارًا نهائيًا لفكرة الأجناس الأدبية في فكر بارت، لأنها لم تعد قادرة على تفسير التداخل بين الفنون والوسائط الجديدة في العصر الحديث.

سابعًا: موقف بارت في ضوء النظريات الحديثة

يمكن القول إن بارت فتح الباب أمام تصوّرات ما بعد البنيوية، التي ترى أن كل تصنيف هو بناء ثقافي متحوّل، وأن الأنواع الأدبية لم تعد تُعرَّف بحدودها الشكلية، بل بوظائفها التداولية والتفاعلية، ولقد مهّد بارت الطريق أمام نظريات مثل:

- التناصّ(Kristeva)
- التفكيك(Derrida)
- نظرية الخطاب(Foucault)

وكلها قامت على الفكرة نفسها التي نادى بها بارت: انهيار الحدود النوعية وبروز النص المتعدد.

ثامنًا: خلاصة موقف بارت من نظرية الأجناس الأدبية

البعد	موقف رولان بارت
مفهوم النوع	بناء تاريخي وثقافي وليس جوهرًا ثابتًا
العلاقة بالنص	النوع يُقيد النص ويحدّ من حريته
البديل النقدي	النص المفتوح – الكتابة – اللذة – التعدد
الموقف النظري	نقد التصنيفات البنيوية والسلطة الأكاديمية
الأثر اللاحق	تأسيس النقد ما بعد البنيوي والسيميائي الحديث

خاتمة:

لقد مثّل رولان بارت نقطة التحول الكبرى في فهم العلاقة بين الأدب وأنواعه. فبينما سعى الشكلانيون والبنيويون إلى تقعيد الأنواع وتحليل بنياتها الداخلية، جاء بارت ليفكك هذه البنيات ويكشف عن طابعها الاعتباطي والإيديولوجي، ففي فكره، لم يعد السؤال: ما نوع هذا النص؟ بل أصبح السؤال: كيف يشتغل هذا النص؟ وكيف ينتج المعنى ويقاوم التحديد؟

إن موقف بارت من نظريات الأجناس الأدبية هو في جوهره ثورة فكرية ضدّ كل قيد منهجي، ودعوة إلى النظر إلى النصوص بوصفها فضاءات مفتوحة على الاختلاف، لا قوالب مغلقة على الهوية النوعية.

أهم المراجع:

1. Roland Barthes, Le degré zéro de l’écriture, 1953.
2. Roland Barthes, S/Z, 1970.
3. Roland Barthes, La mort de l’auteur, 1968.
4. Roland Barthes, Le plaisir du texte, 1973.

.5تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي.

.6جوليا كريستيفا، ثورة في اللغة الشعرية

.7دريدا، الكتابة والاختلاف.